نَسِيبَة في مَوَاطِن أخرى

لقد صدقت نسيبة في بيعتها، وكانت قدوة حسنة في أُحد للرجال والنساء معاً، وبذلك حققت ما فهمه الأنصار من البيعة حينما قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف للأنصار: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال «نقصها» وقتل الأشراف؛ فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله ﷺ إن نحن وفينا؟

قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك.

فبسط يده فبايعوه.

وما قدمته نسيبة كان مصداقاً لهذا الوعي وهذه البيعة.

نَسِيبَة في الخَندَق

وبعد أحد لم تترك موطناً إلا حضرته مع رسول الله ﷺ، وكأنما أصبحت جزءاً من الدعوة، ترى أن الإسلام قضيتها الأولى، تعيش لدعوتها وتتحرك معها، وتتابع أحداثها، وتعي ما يدور حولها فترى ما يكيده أعداء الدعوة من مكائد، وما يعملون من مؤامرات.

كانت في المدينة، حيث تركزت الأحداث فيها وأصبح العرب كلهم ينظرون إلى ما يدور بين محمد ودعوته الجديدة، وبين قريش ومعارضتهم الباغية.

وكذلك فلقد كان يهود في المدينة يتآمرون مع كفار قريش للقضاء على المسلمين. وكانت أحد حافزاً لهم على مواصلة التآمر والكيد، وجاءت جموع قريش ومن حالفها من القبائل لتهاجم المدينة وتقضي على المسلمين، وتواعدوا مع اليهود في داخل المدينة الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد.

وجمع رسول الله ﷺ المسلمين ليستشيرهم بما يصنع، وأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر الخندق والتحصن بالمدينة، وهب المسلمون رجالاً ونساءً يعملون لتحصين المدينة، لم يتخلف إلا منافق وقام كل بما عليه، حتى حفروا خندقاً كبيراً يقطع الطريق على جيش المشركين. فلما وصل جيش قريش ومن حالفها إلى ضواحي المدينة واستعدوا لمهاجمتها، فوجئوا بخندق طويل وعريض يحول دون دخولها، وكان المسلمون يحرسون المنافذ، ويراقبون تحرك الجيش الجاهلي.

أما النساء فلقد كن يحمين ظهور المسلمين، ويأتينهم بالمؤونة في مواقعهم، ويحرسن المدينة من غدر يهود.

لقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يجتمعن في الحصون مع الأطفال حتى تسهل حراستهن، وحين حاول اليهود التحرش بالنساء ودار أحدهم حول الحصن، تصدت له صفية بنت أبي طالب ـ عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير ـ فضربته بعمود خشبي على رأسه وصرعته.

وهكذا كانت نسيبة وأخواتها المسلمات في هذه المعركة أيضاً مستنفرات، يراقبن تحركات يهود، ويحمين ظهور المسلمين، ويمددنهم بالمؤونة.

ومعركة الخندق كانت من أشد المعارك وأقساها

على المسلمين، لم يتخلف عنها أحد، ولقي المسلمون فيها من الشدة والضيق الشيء الكثير، ولكن درس أُحد كان حاضراً في أذهانهم، فلقد أخرجوا حب الدنيا من نفوسهم، وأخلصوا نياتهم لله رب العالمين، واجتمعوا رجالاً ونساءً في صف متراص، وانضباط شديد لحماية الإسلام والدفاع عن المدينة.

لقد توزعوا مهام المعركة، فحرسوا الخندق ليلاً ونهاراً، وراقبوا تحركات يهود، فلم يحاول المشركون شيئاً، ولم يكد اليهود كيداً إلا وكان المسلمون رجالاً ونساءً له بالمرصاد.

وحين كان الرجال يهتمون بالتصدي لقريش وحلفائها وهم عشرة آلاف، كان النساء يقمن بحماية بيوت المسلمين وظهورهم من كيد يهود، فأنزل الله عز وجل على المسلمين النصر بعد الصبر، وكافأهم بالفوز من بعد المحنة، وكان وعداً له مفعولاً، فهذا الصف المتراص، وهذه القلوب الصادقة، وهذه التضحيات العظيمة، كان من شأنها أن تنتصر بإذن الله عز وجل. ولم يعرف التاريخ صورة أروع من صورة المدينة وهي تتصدى لأعداء الله، من الداخل والخارج، فهم جسد واحد: جيش يجاهد في سبيل الله، وقوة واحدة تتحرك بأمر رسول الله ﷺ، لم يشذ أحد من المسلمين، ولم

يتخل واحد عن مسؤوليته، ولم ينفرد رجل أو امرأة بموقف يخالف فيه المسلمين، لا غاية لهم إلا رضون الله عز وجل، ولهذا أُحبطت محاولات قريش في اجتياز الخندق، وقتل من حاول أن يخترقه، وكذلك أُحبطت مكائد يهود، وتصدت النساء لطلائع اليهود الذين حاولوا الغدر لإشغال المسلمين، ورأوا جبهة أخرى يتحمل أعباءها النساء لا تقل صلابة وقوة عن جبهة الرجال من المسلمين.

وبذلك انكشفت نواياهم.

وحين آذن الله بالنصر، أرسل الريح لتقلع الخيام، وتطفئ النيران، وتكفأ القدور، فإذا بقريش تولي الأدبار خائبة، وتترك حلفاءها من يهود في يثرب يلقون العقاب الأليم لغدرهم الماكر، وهكذا انتهت معركة الخندق بانتصار عظيم، وكانت آخر محاولة لقريش بغزو المسلمين، وكانت نهاية عادلة لبني قريظة حيث طهر المسلمون المدينة منهم فقتل رجالهم وسبيت نساؤهم بحكم رب العالمين. هكذا شاركت نسيبة في الخندق، كانت تقوم بدورها مع أخواتها وراء الجيش الإسلامي، وتمد المقاتلين بما يحتاجون، حتى تحقق النصر.

إنها صورة المجتمع الإسلامي المتراص، وصورة الدعوة وهي تخوض أقسى معارك الجهاد.

عمرة القضية

ثم خرج رسول الله ﷺ لتأدية العمرة، فخرجت نسيبة مع المسلمين لأداء العمرة، ولكن قريشاً حالت دون ذلك وتتابعت الأحداث، وجرت المفاوضات حتى دعا رسول الله ﷺ من كان معه للبيعة على الموت بعد أن وردت الأخبار بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فشاركت نسيبة في هذه البيعة التي ذكرت في كتاب الله عز وجل، ثم انتهت الأمور إلى صلح الحديبية الذي كان فتحاً للمسلمين، حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً. وبدأت قريش تنهار[1].

---

(١) انظر كتاب (أبو بصير) للمؤلف.

نَسِيبَة في فَتْح مَكّة

وبعد سنتين دعا رسول الله ﷺ المسلمين للاستعداد، وتهيأ الناس ليوم الفتح العظيم وانطلق الجيش الإسلامي - من المهاجرين والأنصار - نحو مكة، لتطهيرها من الأوثان، وإعلاء كلمة الله.

وكانت نسيبة في طليعة النساء المسلمات اللواتي شاركن في الفتح، وهل تتخلف عن أعز أمنية ينتظرها المسلمون، للعودة إلى مكة وفتح البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً؟

وهناك كتب الله النصر، وأذن بالفتح، فإذا بقريش تأتي خاضعة تضع الأعناق ذليلة خاضعة بين يدي رسول الله ﷺ وإذا به يكرمها ويحررها من الضلال والوهم والجاهلية: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وتعود قريش إلى عزتها الحقيقية، في الإيمان والتمسك بشريعة الله.

وطافت نسيبة مع المسلمين حول البيت، لبت وسعت، ووقفت على الصخرات، ودعت ربها أن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يقبلها في عباده الصالحين.

نَسِيبَة في حُنَين

وما كاد المسلمون يستريحون من عناء السفر الطويل والفتح المبين حتى تجمعت هوازن ومن حالفها للتصدي للمسلمين.

وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالسير إليهم، وكانت معركة حنين، التي رأى فيها المسلمون شدة وبأساً، وكادت جموعهم تنهزم حينما فاجأتهم هوازن من الجبال والشعاب، وانقضت عليهم كالسيول.

ولكن الصادقين من المهاجرين والأنصار، يلتفون حول رسول الله ﷺ وهو يناديهم للثبات ويتصدون للآلاف المشركة، ويعود الجيش رويدا رويداً.

كان النساء يدفعن الفارين من الطلقاء، وحديثي العهد بالإسلام للعودة إلى القتال. فدرس أُحد ما يزال ماثلاً في أذهان نسيبة وأخواتها، ولن يتكرر ذلك أبداً.

وتحولت حنين إلى نصر عظيم، كان المسلمون من أبناء بدر وأُحد هم عمدة هذا النصر وهم صانعوه، بفضل الله رب العالمين.

وهكذا نالت نسيبة شرفاً آخر، في هذه المعركة الخالدة حيث شاركت مع بقية النساء في دفع الفارين، وإثارة نوازع الإيمان عند الضعفاء والخائفين، وتهيأت للقتال إذا لزم الأمر، حتى نصر الله عباده المؤمنين، وهزم جيش المشركين.

في كل هذه المواطن لم يظهر لنسيبة دور خاص، ولكن حضورها مع بقية الرجال والنساء كان للدلالة على هذا الدور، لأنها مواطن عظيمة، كان لها في تاريخ الإسلام أهمية وفضل، ولكل موقعة دروس ومعالم وصور، ولا شك أن نسيبة شاركت فيها مشاركة فعالة بحدود مسؤوليتها كامرأة في طليعة النساء المسلمات، وكصحابية بايعت رسول الله ﷺ على الصدق والوفاء مع ما عرفته من الأمور وهي تشارك في أحد، حين رأت كيف تؤدي المغريات إلى النكبات، وكيف يتسلل الضعف نتيجة الهوى، وكيف ينخرم عقد الإيمان إذا ركن المسلم إلى الدنيا والهوى.

لقد كانت مع أخواتها ظهيراً للمسلمين في كل هذه الوقائع، ترقب الأحداث، وتعالج الجرحى ـ وتمد بالمؤونة ـ وتوجّه من يتسلل إلى نفسه الضعف، فتذكره بعهد الإيمان، وثواب الله، فيعود أكثر عزماً ومضاءً.

نِسيَبة وَفتْح خَيْبَر

عاد رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى المدينة فجاءته الأخبار بتحركات يهود وتجمعهم في خيبر واستعدادهم لحرب طويلة مع المسلمين، فتجهز رسول الله ﷺ، ودعا المسلمين لمحاربتهم وخرج الجيش الإِسلامي ومعه كثير من النساء إلى خيبر.

كانت نسيبة في طليعة النساء اللواتي خرجن مع الجيش، وشهدت هناك بطولات الجيش الإِسلامي في حصار الحصون وفتحها واحداً تلو آخر، بعد ألوان من التضحيات، والتصدي لأبطال يهود واحداً تلو آخر، بعد ألوان من التضحيات، والتصدي لأبطال يهود الذين نزلوا يقاتلون المسلمين حتى فتحت خيبر، وأضافت نسيبة في صفحاتها سجلاً جديداً لمعركة جديدة في صحبة رسول الله ﷺ.

وشهدت الخلاص من اليهود، والقضاء على

مكرهم بعد سلسلة التآمر والكيد الذي بدأوه منذ ظهور الإسلام في مكة.

هذه السلسلة من الغزوات والمعارك، وهذه السلسلة من الأحداث التي شاركت فيها نسيبة بجهد واضح كامرأة، في أُحد والخندق والحديبية، ثم في العمرة، وفتح مكة، وغزوة حنين، وفتح خيبر.

إن هذه السلسلة الجهادية، وهذه المشاركة بالدعوة تعطينا صورة عن أم عمارة الداعية إلى الله، المجاهدة في سبيل الله.

وتعطينا صورة عن المرأة التي تبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فتعطي جهدها ومالها، وتضحي بكل شيء في سبيل عقيدتها.

تدفع أبناءها وزوجها، وتشارك بنفسها في القتال، ولا تتخلف عن معركة أو حدث من الأحداث.

إنها صورة الداعية المخلصة، صورة المجاهدة البطلة، صورة المسلمة التي تعيش لترضي ربها، وتحمي عقيدتها وتعلم أن مرضاة ربها هي الغاية والهدف، وفي سبيل ذلك تهون الصعاب وترخص التضحيات. وإذا تصورنا المسافات الشاسعة التي تقطعها مع الجيش في

هذه المعارك، وسط الحر والبرد، مع الظمأ والجوع والتعب، في الشدة والمخاوف والأخطار، إذا تصورنا ذلك كله أدركنا عظمة الجهد الذي قدمته مع بقية المسلمين لنشر هذا الدين.

وهكذا تُبنى العقائد، وبهذا الجهد المخلص تعيش الدعوات، وفي مثل هذه التضحيات يقوم المجتمع الإسلامي، بالصف المتراص، بالإخلاص الصادق بالإيمان الراسخ، بالولاء الكامل لله رب العالمين.